فئات اللصوص والقراصنة خلال عصر الحروب الصليبية (1095 – 1291م)

Categories of thieves and pirates during the Crusades (1095 – 1291)

أ.م.د/ أشرف صالح محمد سيد

Dr. Ashraf Salih Mohamed Sayed

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد – هولندا

Averroes University, Holland

تاريخ الإرسال:2020/11/19 تاريخ القبول: 2020/11/27

ملخص:

تعتبر اللصوصية من أشد أنواع الإجرام خطورة في المجتمع، سواء كانت في البر (قطع الطريق) أو في البحر (القرصنة)، وقد انتشر اللصوص في عصر الحروب الصليبية حتى أصبح ذلك ظاهرة تدعو إلى الانتباه، خاصةً في الجانب الصليبي. وذلك على الرغم من أن السرقة واللصوصية في العقيدة المسيحية خطيئة خطيرة، فهي أمر معيب، حتى ولو كان سبب السرقة فقر مُدَقع. وتتناول هذه الدراسة فئات اللصوص والقراصنة في عصر الحروب الصليبية، وذلك وفق منهج البحث التاريخي بهدف بيان تنوع الفئات التي اشتركت في عمليات اللصوصية والقرصنة، والذي لم تبخل المصادر التاريخية المعاصرة للحروب الصليبية من الحديث عنه باستفاضة، كدليل قوي على كثرة اللصوص والقراصنة في ذلك العصر.

الكلمات المفتاحية: العصور الوسطى، الحروب الصليبية، اللصوصية، القرصنة.

Abstract:

Banditry is one of the most serious types of criminality in society, whether on land or at sea. Thieves and pirates spread out in the era of the Crusades to become a remarkable phenomenon, especially on the Crusader side. Although theft and banditry in the Christian faith are a serious sin, it is flawed, even if the cause of theft is extreme poverty. This study deals with the categories of thieves and pirates in the era of the Crusades, in accordance with the historical research approach with the aim of demonstrating the diversity of groups involved in banditry and piracy. Contemporary historical sources of the Crusades spoke at length about this subject, as a powerful sign of the multitude of thieves and pirates of that era.

key words: Medieval times, crusades, banditry, piracy.

1.مقدّمة

كان للحج المسيحي بقصد التوبة قيمته العملية من الناحية الاجتماعية، إذ كان يرغم المجرمين وأصحاب الذنوب على الابتعاد عن المجتمع عدة شهور، أو عدة سنوات.[1]

وقد أدركت البابوية هذا المعني فحثت اللصوص والقراصنة والمجرمين على الانخراط في الحركة الصليبية. يقول البابا أوربان الثاني[2] في المجمع الذي عُقد في كليرمونت[3] سنة (488هـ/ 1095م): "ولتكن غيرتكم في هذه الحملة تكفيرًا عن السلب والسرقة والقتل التي بها آثرتم غضب الرب".[4] وفى رواية أخرى لخطاب البابا أوربان الثاني: "فليخرج أولئك الذين عكفوا حتى الآن على حروب خاصة ومغايرة للشرع، فجرَوا عظيم الخسران على المؤمنين، فليكونوا من الآن فرسانًا للمسيح، أولئك الذين لم يكونوا غير قُطاع طرق".[5]

فقد أرادت البابوية تصدير العنف الذي كان دائرًا في أوروبا إلى الشرق الإسلامي، بدلاً من تناحر المسيحيين فيما بينهم في أوروبا، فضمت الجيوش الصليبية أعدادًا كبيرة من المجرمين بمختلف أنواعهم، كل أولئك أتوا تحت شعار الحروب الصليبية، وتركزوا في الموانئ الساحلية لبلاد الشام.[6]

كان جيش بطرس الناسك[7] يتكون من أُناس شتى،[8] فاستطاع بطرس الناسك بفضل ما أوتيه من قوة الخطابة وقدرة على الاقناع أن يحث الكثيرين على الانخراط في الحملة الصليبية الشعبية بأسرع ما يمكن، فكان معه أساقفة ورؤساء أديرة، وعامة الشعب والأشراف، بالإضافة إلى الأشرار، والزناة والقتلة واللصوص،[9] وقد اعترف بطرس الناسك نفسه بانخراط اللصوص وقُطاع الطرق في صفوف جيشه، فعندما هُزم جيش بطرس الناسك من السلاجقة الأتراك في سير الحملة الصليبية الأولى الشعبية، ألقى بطرس الناسك باللوم على كاهل رجاله، لأنهم كانوا كما قال: "لا يعرفون الطاعة، وإنما يتبعون أهواءهم، ونعتهم بأنهم "لصوص وقُطاع طرق".[10]

كان جيش بطرس الناسك أو (جيش الرب) قد اكتسب سمعة سيئة للغاية في تلك الأنحاء – في بلغاريا والمجر وبيزنطة – كجيش من الجياع والمغامرين واللصوص الذين لا يردعهم رادع عن ارتكاب أبشع ما يمكن للإنسان أن يرتكبه في حق الإنسان.[11]

ولم يكن اشتراك اللصوص والمجرمين قاصرًا على جيش بطرس الناسك، بل انخرطوا في الجيوش الأخرى، ففي الحملة الصليبية الأولى الشعبية احتشد جيش آخر بقيادة إقطاعي صغير من سادة بلاد الراين، هو (أميخ) كونت (لايزنجن)، الذي حاز شهرة في الخروج على القانون واللصوصية.[12]

كانت السمة الغوغائية للحملة الصليبية الأولى (الحملة الشعبية) ترتبط أساسًا بمشكلة الإنسان الذي شارك فيها، فقد كانوا مجموعة من المغامرين والمنبوذين

سواء كانوا من القراصنة أو من اللصوص الذين يبتزون ويغتصبون أموال التجار، أو من نبلاء المجتمع المنبوذين (البارونات اللصوص) وباعتراف الجميع، لم تكن جيوش الحملة الصليبية الأولى الشعبية جموعًا من القديسين.[13] وعندما قاد الصبي الألماني (نيقولا Nicholas) حملة الأطفال من (كولجن Cologne) صوب الشرق العربي، كانت حملته الصليبية تشتمل على الرجال والنساء والأطفال والرُضع، ولكن الأغلبية كانت من الشباب، هذا فضلاً عن الأشرار من الرجال والنساء الذين التحقوا بالحملة.[14]

إن مرتكبي العنف المجرمين في داخل الجماعة المسيحية قد تحولوا إلى مقدسين بمجرد هبوطهم إلى الأرض المقدسة، وبمجرد توجيههم سلاحهم ضد (أعداء الصليب). وما كان في الغرب اللاتيني جنونًا، أصبح عند نقله إلى فلسطين، روحانية مسيحية.[15] إن كل الإيطاليين من البنادقة والجنوية والأمالفيين والبيازنة الذين شاركوا في الحروب الصليبية، كانوا عبارة عن أناس شاركوا في هذه الحروب من أجل السلب والنهب، وأبحروا للبحث عن السرقة والنهب، فكانوا كاللصوص والقراصنة والمعتدين.[16]

إن الحركة الصليبية لم تكن قاصرة على أمة أو دولة أو جنس معين، وإنما اشتركت فيها جميع أمم الغرب الأوروبي، واشتملت كذلك على عناصر من مختلف الطبقات، فكان فيها النبلاء وكبار رجال الإقطاع والفرسان ورجال الدين، وبجانبهم أعداد غفيرة من عامة الشعب واللصوص والمجرمين وقُطاع الطرق.[17]

كان قدوم اللصوص والقراصنة إلى الشرق الإسلامي مستمرًا في أوقات الحرب والسلم على حد سواء، يقول يعقوب الفيتري عن الأوروبيين القادمين إلى الأرض المقدسة :[18] "رجال خطرين مجرمين أشرار، لصوص، سارقين، قراصنة".

ازداد معدل جريمة السرقة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، فقد كانت الظروف مهيأة في مملكة عكا الصليبية لتفشي تلك الجريمة، ويرجع ذلك لتجمع عدد كبير مَمَنْ لفظتهم أوروبا بسبب جرائمهم من اللصوص والمغامرين والهاربين من العدالة،[19] الذين قدموا من مختلف بلاد العالم مدفوعين بعوامل شتي أهمها حب المغامرة وأقلها العامل الديني،[20] حتى غدت عكا وكبري المدن الصليبية مستودعًا للنفايات البشرية للمجتمع الأوروبي، ومن ثَمَّ انتشرت العديد من الأمراض الاجتماعية.[21]

يقول الرحَالة الأوروبي بورشارد عن التركيبة الاجتماعية للأوروبيين في الأراضي المقدسة:[22] "يقيم في الأرض المقدسة رجال من جميع الأمم التي تقطن تحت السماء، وكل واحد منهم يتبع مذهبًا خاصًا، وللحقيقة فإن رجالنا اللاتين هم الأسوأ من جميع أهل الأرض، لأن الواحد منهم عندما يصبح قاتلاً أو سارقًا أو لصًا، فإنه يقوم بقطع البحر كإنسان تائب، فيأتي الناس إلى

هناك من جميع بقاع العالم، ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا وإسبانيا وهنغاريا، ومع أنهم يفعلون ذلك ويقومون بتغيير مناخهم، وليس تفكيرهم، ويقومون بفعل أسوأ مما كانوا عليه من قبل". لقد كان الصليبيون خليطًا غريبًا من المغامرين والأتقياء، من الحجاج واللصوص، من المثاليين والهاربين من العدالة.[23]

هكذا انخرط اللصوص والقراصنة ومَنْ على شاكلتهم من المجرمين الأوروبيين في الحركة الصليبية سواء في أوقات الحرب وتجهيز الحملات، أو في أوقات السلم بين المسلمين والصليبيين، وأصبحت بلاد الشام ومياه البحر المتوسط مرتعًا خصبًا لكافة أنواع اللصوصية والقرصنة، التي مارسها المجرمون، ضد المسلمين وضد بني جلدتهم من الصليبيين، هذا فضلاً عن اللصوص والقراصنة الشرقيين، فأصبحت السرقة في عصر الحروب الصليبية ظاهرة اجتماعية خطيرة تدعو إلى الانتباه.

وقد تنوعت فئات اللصوص والقراصنة خلال عصر الحروب الصليبية، فلم تقتصر على أصحاب جنس أو دين أو طائفة معينة، بل اشترك في ذلك جميع الأجناس التي عاشت على أرض بلاد الشام، أو عاصرت الأحداث، بل كان منها فئات غير متوقعة بأن تشترك في هذه الأعمال خاصةً فئة الملوك والأمراء ورجال الدين، الذين هم أبعد ما يكون عن أعمال اللصوصية والقرصنة. وقد وردت فئات اللصوص والقراصنة في المصادر التاريخية خلال عصر الحروب الصليبية على النحو الآتي:

أولاً – الملوك والأمراء

على الرغم من أن الاشتراك في عمليات اللصوصية والقرصنة من الأعمال التي نهت عنها جميع الأديان السماوية، بل وتأبى النفس البشرية الإقدام عليها، إلا أن عامة الناس عندما يصبحون لصوصًا أو قراصنة، يمكن أن يُلتمس لهم العذر، لأن ذلك أحيانًا يكون بدافع البحث عن الطعام فقط، خاصةً في أوقات المجاعات الشديدة، التي تعددت في هذا العصر، أما أن يشترك الملوك والأمراء ممَنْ يملكون المال والسلطان في أعمال السرقة، فهذه من الغرائب التاريخية التي ربما لم تحدث إلا في عصر الحروب الصليبية، والتي تؤكد على أن من أكبر أهدافهم في هذه الحركة، البحث عن ثروات الشرق.

فلم يأنف ملوك بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية عن القرصنة والسلب والنهب، وقطع الطرق على المكشوف، الأمر الذي كان يتوافق كليًا مع روح ذلك الزمن حين كان يسود حق الأقوى.[24] ففي سنة (519هـ/1125م)، على سبيل المثال، شرع ملك بيت المقدس بلدوين الأول[25] في شن غارات على الجهات الغربية من مدينة دمشق والمضايقة لها، وقطع الطرقات على الواردين إليها.[26] ولا يُعَدّ ما فعله الملك بلدوين الأول من الأعمال العسكرية البطولية التي تُحسب له، فهو لم يهزم جيشًا، ولم يحاصر قلعة أو حصنًا، بل قام بعمل من أعمال اللصوص، وهو قطع الطريق.

كانت عملية قطع الطريق من أخلاقيات بعض ملوك أوروبا في ذلك العصر، فقد كان (داود الأول) ملكًا لأسكوتلندا من عام (518هـ/ 1124م)، إلى عام (548هـ/ 1153م)، وكان حاميًا للكنيسة، ونهابًا قاطعًا للطريق.[27]

ومن المفارقات التاريخية أن يتورط ملك إنجلترا وقائد الحملة الصليبية الثالثة، ريتشارد الأول قلب الأسد في عملية سرقة، كأنه لص من مئات اللصوص الأوروبيين الذين قدموا إلى الشرق الإسلامي. عندما كان ريتشارد قلب الأسد[28] في طريقه إلى الشرق في الحملة الصليبية الثالثة، سار برا من مرسيليا، وتولى أسطوله نقل جيشه إلى مدينة ماسينا، ولم يصحب ريتشارد إلا تابع واحد، وحينما سار ريتشارد قلب الأسد قرب مدينة ميلينو الصغيرة في إقليم كلابريا، حاول أن يسرق صقرًا من بيت أحد الفلاحين، فكاد يتعرض للموت على أيدي أهل القرية.[29]

وقد تورط بعض ملوك أوروبا في سرقة بعض الرفات المقدسة، ففي الكثير من الأحيان كان البلاط الملكي هو الذي يدفع اللصوص إلى هذه السرقات، ويسمحون بالمشاركة في سرقة الرفات، ويعتبرون أنها سرقة مقدسة.[30]

على صعيد الأمراء اللصوص، فقد ارتكب الكونت (أميخو) أحد قادة الحملة الصليبية الأولى الشعبية، وعصابته ذات السمعة السيئة أبشع الجرائم.[31] أما الكونت (رينو دي شاتيون) المعروف بأرناط،[32] فإن ذلك الفارس اللص كان لا يستطيع الحياة دون أن ينهب أو يسرق.[33]

في سنة (506هـ/1112م)، مات باسيل الأرمني، صاحب دروب بلاد ابن لاون – بأرمينيا الصغري – وهو المسمى (كوع باسيل) أي اللص باسيل، لأنه سرق عدة قلاع من الثغور الشامية فتملكها،[34] وكان يسطو على المسافرين باستمرار.[35] وعلى الجانب الإسلامي، كان خلف بن ملاعب الكلابي متغلبًا على حصن أفامية[36] ومدينة حمص، وكان الضرر به عظيمًا ورجاله يقطعون الطريق، فكثر الحرامية عنده.[37]

ثانيًا: الفرسان وموظفو الدولة

من الفئات الأخرى التي انضمت إلى عالم اللصوص والقراصنة، وإن كان واجبها الأساسي هو محاربه هؤلاء المجرمين، فئة الفرسان في المجتمع الصليبي، سواء في الغرب الأوروبي أو في بلاد الشام.

في سنة (538هـ/ 1143م)، قتل (روبرت مارميوم) الذي كان فارسًا من أهل الحرب، فطرد رهبان (كوفنتري) من ديارهم، وحوَل الكنيسة إلى قلعة، وقُتل في وسط عصابته من اللصوص.[38] وبعد أن استولى الصليبيون على القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة، شُنق عدد كبير من الفرسان ممَنْ أُدينو بالسرقة، فقد شنق الكونت (دي سانت بول) أحد فرسانه، وعلَق درعه في رقبته لاحتجازه بعض الغنائم، فقد كانت

الغنيمة بالغة الضخامة لولا أن امتدت إلى جزء منها يد السرقة.[39] فقد أخذ الأشخاص أنفسهم – الفرسان – الذين عُهد إليهم الحراسة كل ما طمعوا به من الحُلي الذهبية، فقد امتدت أيديهم بالسرقة إلى هذه الثروات وإلى ما وجدوه.[40] وهو ما ينطبق عليه المثل الشائع الآن "حاميها حراميها".

يقول الرحالة فيلكس فابري عن الوضع في القدس قبل تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي:[41] "كان هناك أعداد كبيرة من فرسان الضريح المقدس والهيكل غير أتقياء، لصوصًا، وآثمين، وهكذا صارت المدينة المقدسة وكرًا لمقترفي الآثام".

كان من بين القراصنة أُناس متعلمون وآخرون من حُثالة المجتمع، وضباط ملكيون، وبحارة وموظفون عملوا فيما مضي في إدارة الأسطول البحري، ولصوص نكرة تواءموا جميعًاعلى ظهر سفينة واحدة.[42] ولم يكن موظفو الإمبراطورية البيزنطية يخجلون من حياتهم، بل إن منهم مَنْ كان يفعل أكثر من ذلك، فيجهزون بأنفسهم السفن لأغراض القرصنة، مثال ذلك، حاكم (تاسوس Thasos)، و(اسكوبيلوس Scopelos)، و(سيريجو Cerigo) وبخاصة حاكم رودس، ويدعى (كريفيكيوتس Krivikiotes).[43]

ثالثًا: رجال الدين

من أكبر جرائم السرقة التي تورط فيها رجال الدين من الكيان الصليبي، سرقة الرفات المقدسة، فقد كان رجال الدين هم الذين يسرقون الرفات، وأحيانًا كانوا يستأجرون محترفين للقيام بذلك، إذا أن القوانين العادية التي تحارب السرقة يمكن أن تتوقف وتُعلَق خلال هذه الفترة، فإن الرهبان والراهبات إما سرقوا الرفات المقدسة أو ساعدوا في التخطيط لهذه السرقات.[44]

فقد أعاد فارس صليبي يدعي (ألبرت Albert) أثرًا مقدسًا للقديس (نيقولا St . Nicholas) كان قد سرقه كاهن يمت بصلة قرابة لذلك الفارس.[45] كان الكاهن وأحد البطارقة الآخرين يذهب في رحلة الحج، ثم يتوقف في أحد المدن أو القرى التي يستقر فيها جثمان القديس، وبسبب اعجابه بما يسمعه عن مكانة هذا القديس وفضائله ومعجزاته، يقرر سرقة الجثمان لينقله إلى بلده. ينتظر اللص حلول الليل، ثم يدخل الكنيسة، ويحث القسيس على الذهاب معه، ثم يقتحم المقبرة، ويأخذ الرفات ويسرع بها عائدًا إلى وطنه، حيث يتم الترحيب بالقديس الجديد من حشد كبير من الناس. وهكذا كانت السرقات تتم عن طريق رجال الدين أو محترفين يتم استئجارهم، والذين كانوا يقومون بالسرقة لصالح رجال الدين.[46]

هذا، ولم تتوقف سرقات رجال الدين من الكيان الصليبي على الرفات المقدسة، على أساس أنها سرقة لها ما يبررها من وجهة نظرهم، بل انخرط بعضهم في سلك اللصوص وقُطاع الطرق صراحة. فبعد وفاة الملك لويس التاسع ملك فرنسا، صار عدد كبير من رهبان السسترشيان، قُطاع طرق ولصوص، وحرامية، وقتل كثير

منهم، وأعدموا في مناطق متعددة، بسبب السرقات التي عملوها.[47]

رابعًا: طوائف الشعوب الأوروبية

لم تأت طبقة ولا شعب من شعوب الغرب الأوروبي إلى بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، إلا وانخرط بعض منهم في سلك اللصوصية والقرصنة، هذا فضلا عن احترافهم للإجرام من الأساس في الغرب الأوروبي قبل قدومهم إلى الشرق الإسلامي (كما ذكر سابقًا).

يقول المؤرخ الصليبي المجهول عن شعوب أوروبا الشرقية التي واجهت الحملة الصليبية الثالثة في طريقها إلى الشرق: "انطلق البلغاريون والبشناق[48] والهون واللان من مكامنهم، وكروا يهاجمون رجال الرب، لقد تحولت هذه الشعوب إلى عصابات تقطع الطريق على السابلة، بسبب ما كانت عليه بلادهم من الوعورة والجدب".[49]

وقد أكدت روايات أخري على أن أكثر شعوب أوروبا الشرقية انخراطًا في سلك اللصوصية كان البلغاريون. ففي سنة (585هـ/ 1189م)، لم يكد الألمان يعبرون نهر الدانوب، صوب الشرق في الحملة الصليبية الثالثة أيضًا، حتى صادفهم الاضطراب، إذ أن قُطاع الطرق من الصربيين والبلغاريين، هاجموا العساكر الضالَين، واتهم الألمان البيزنطيين بإثارة هذه العداوة.[50]

وظهر من بين الفرنسيين بعض اللصوص، ففي سنة (614هـ/ 1217م)، قام أحد اللصوص بمهاجمة دير القديس ألبان في الأراضي الإنجليزية.[51] وفي سنة (557هـ/ 1161م)، ظهر سارق إفرنجي في مدينة بغراس[52] وحاول الفرنج أن يقبضوا عليه لكنه هرب.[53] وفي سنة (674هـ/ 1275م)، هزم الجيش المصري الأرمن في مدينة إياس القريبة من مدينة قليقية، فكان أغلب أهالي إياس من الأرمن محتشدين في مكان قريب خوفًا من المصريين، غير أن اللصوص الفرنج وثبوا إليهم ونهبوا كل مالهم، وانتزعوا ثيابهم كذلك، ولكنهم لم يقتلوهم.[54]

بعد أن استقر الصليبيون في الشرق وتكون منهم مجتمع جديد عن طريق التزاوج مع مسيحي الشرق، عُرف بطبقة البولاني، انخرط أغلب هذه الطبقة في سلك اللصوصية. يقول يعقوب الفيتري مؤكدًا على ذلك:[55] "كانوا لصوصًا وقُطاع طرق، رجال دمويين، خونة".

وفي مجال السرقة عن طريق القرصنة، من أسماء القراصنة، نقرأ عددًا كبيرًا يدل على أنهم من أصل غربي، وهذا يرجع إلى العناصر الغربية التي اختلطت بالجنسية اليونانية قبل الحملة الصليبية الرابعة وبعدها أيضًا.[56] إن الجنويين والبيزيين كانوا أكثر مَنْ يعمل في مهنة القرصنة، ويشكلون القسم الأكبر من طائفة القراصنة الذين كانت تعُج بهم المياه اليونانية، وكانت حالة البحرية اليونانية السيئة للغاية تسمح لهم بأن يشنوا غاراتهم بقوة.[57]

ومن طوائف المجتمع الأوروبي التي انخرطت في اللصوصية اليهود، ففي عام (633هـ/ 1235م)، سرق سبعة من اليهود طفلاً من بلدة (نورويك)

الإنجليزية واحتفظوا به كُليًا بعيدًا عن أنظار المسيحيين، وكانوا عازمين على صلبه في عيد الفصح.[58]

وإذا كان بعض ملوك الكيان الصليبي من فئة اللصوص، فكان من الطبيعي أن يكون العبيد من جملتهم أيضًا، خاصةً مَنْ يعمل منهم في القرصنة، يقول فيلكس فابري مؤكدًا على ذلك:[59] "عبيد الغليون – سُفن القراصنة– بشكل عام لصوص". بل يقول عنهم في موضع آخر:[60] "إن انعدام الثقة بعبيد الغليون وسرقاتهم، يزعج الحجاج كثيرًا، لأنه لا يمكن تأمينهم على أي شيء، لأن عبد الغليون يسرق كل ما تطاله يده، أو يضعها عليه".

ولم تقتصر فئة اللصوص والقراصنة على الرجال من الصليبيين، بل شاركتهم في اللصوصية بعض النساء الأوروبيات، فقد عاقبت أحد محاكم الأديرة سبع نساء بالدفن وهن أحياء، مقابل جريمة السرقة.[61]

خامسًا: طوائف الشعوب الشرقية

إلى جانب طبقات المجتمع الصليبي التي انخرطت في سلك اللصوص والقراصنة في عصر الحروب الصليبية، شاركهم في ذلك بعض طوائف المجتمع الشرقي، بأجناسه وانتماءاته الدينية والعرقية، مما جعل منطقة الشرق الإسلامي في هذا العصر تعج بالكثير من عمليات السرقة سواء من قبل اللصوص على البر، أو من قبل القراصنة في البحر.

من أكثر الأجناس الشرقية التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية بأنها انخرطت في سلك اللصوصية، وعُرفت بأعمالها الإجرامية، خلال عصر الحروب الصليبية، التركمان، يقول المؤرخ البيزنطي يوحنا كيناموس عنهم:[62] "كان التركمان يعيشون ببراعة من أعمال اللصوصية". ويقول عنهم المؤرخ الإنجليزي متّي باريس:[63] "في سنة (650هـ/ 1252م)، كانت كامل المنطقة المحيطة بأنطاكيا الصليبية، تتعرض للسلب والنهب من قبل التركمان".

ومن ذلك أيضًا، أنه عندما قدم جيش الألمان إلى بلاد الشرق الإسلامي في الحملة الصليبية الثانية، نزلوا مدينة قونية،[64] وأرسلوا إلى السلطان (قلج أرسلان) السلجوقي[65] هدية، وقالوا: ما قصدنا بلادك، إنما قصدنا بيت المقدس، وطلبوا منه جماعة تخفرهم من لصوص التركمان، فنفذ معهم خمسة وعشرين أميرًا، فما قدروا على منع الحرامية لكثرتهم، فغضب ملك الألمان، وقبض على أولئك الأمراء، وقيدهم ونهب متاعهم.[66] وهذه الرواية تدل على مدى خطر اللصوص، لدرجة أنهم قد تغلبوا على الجيش نفسه.

كان يمكن اعتبار أعمال اللصوصية هذه التي قام بها هؤلاء التركمان ضد الكيان الصليبي نوع من أنواع البطولة والمقاومة للمحتل الصليبي، لو أن هذه الأعمال اللصوصية كانت موجة ضد الصليبيين، ولكن مما يؤسف له أن هؤلاء التركمان كانوا يقومون بأعمال اللصوصية ضد ما هو صليبي وغير صليبي، مما يؤكد على

أنهم كانوا من الفئات الكبيرة التي احترف بعض أبنائها اللصوصية على نطاق واسع في عصر الحروب الصليبية. ومن الشواهد التاريخية التي تؤكد على أنهم كانوا يسرقون غير الصليبيين، أن بُلك بن أرتق[67] وضع حامية على مدينة كركر[68]، وكان يأمر بقتل أي تركماني على الخازوق لسرقته قطعة لحم من رجل فقير.[69]

كان التركمان والبدو يروعون القرويين والتجار والحجاج من جميع الأديان، وثمة خطاب مكتوب سنة (494هـ/ 1100م)، كتبه حاج يهودي أقام في مصر يكشف كيف أنه كان يحاول عبثًا أن يصل إلى مدينة القدس على مدى خمس سنوات، ولكن عصابات البدو واللصوص جعلوا من المستحيل اجتياز الطريق إلى المدينة المقدسة.[70]

هذا، وقد انخرط في سلك اللصوصية أيضًا البدو الرُحَال من جميع جنسيات وأعراق الشرق، وإن كان يغلب على لفظ البدو في المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث البدو من العرب، فكثير ما يرد اسمهم بلفظ البدو أو لفظ العرب وكلاهما يقصد به البدو من العرب.

كان الحجاج من الصليبيين إذا وصلوا سالمين إلى مدينة يافا، فإنهم كانوا لا يسلمون في كثير من الحالات من غارات البدو فيما بين يافا وبيت المقدس.[71] يقول أسامة بن منقذ عن سرقة العرب –البدو– لمماليكه وهو في طريقه إلى مدينة دمشق:[72] "كان معي من مماليكي خمسة رجال على الجمال، أخذت العرب خيلهم، وكان على بعض الخيل التي أخذوها سرج ذهب".

ومن فئة اللصوص الشرقيين في عصر الحروب الصليبية، الأرمن، فقد كانوا يتلصصون في أطراف حصن زياد وبولا وملطية.[73] وكان الأكراد يمتهنون السرقة في كل مكان في البلاد الواقعة قبلي سورية، فأخذوا يسرقون أغنام وقطعان وبقر وجمال التركمان.[74] ويقول يعقوب الفيتري عن طائفة السريان في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية:[75] "هم غير جديرين بالثقة، ولا يفكرون سوي بالسرقات واللصوصية".

ومن فئات اللصوص الشرقين الذين ورد ذكرهم في المصادر التاريخية، المسلمين، وذلك دون أن تحدد هذه المصادر جنسية هؤلاء المسلمين. فقد كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج ويسرقون، حتى أنهم كانوا يسرقون الرجال.[76] وذكر أسامة بن منقذ أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع مدينة نابلس، فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين،[77] وذلك أيضًا دون أن يحدد لنا جنس أو عرق هؤلاء المسلمين.

هذا، وتكاد الشواهد التاريخية التي تؤكد على انخراط الشرقيين في سلك القرصنة في عصر الحروب الصليبية، أن تكون نادرة جدًا، ومن هذه الروايات، أنه كان هناك ثلاثة من البحارة الصليبيين في طريقهم إلى مدينة صور، فلما بعدوا عن الميناء الذي خرجوا منه، كان بعض القراصنة من الترك قد لمحوهم حين مغادرتهم الميناء،

فخرجوا إليهم، فلما رآهم البحارة يقتربون منهم في سرعة تولاهم الهلع واستبد بهم الجزع.[78]

2.خاتمة:

تُعَدّ فترة الحروب الصليبية من أهم الحقب التاريخية في العصور الوسطي، نظرًا لطول الفترة التاريخية التي شغلتها، ونظرًا لما تمخضت عنه من ظواهر سياسية وعسكرية ودينية واجتماعية، لم تكن معتادة في الشرق أو الغرب. ومن هذه الظواهر التي تدعو إلى الانتباه في هذا العصر، كثرة انتشار اللصوص والقراصنة، فمع أن الحركة الصليبية كانت حركة دينية، كما كان يدعي الجانب الصليبي؛ إلا أنه كان من أسباب الحركة الصليبية رغبة البابوية في التخلص من المجرمين الأوروبيين بإرسالهم إلى الشرق بحجة تكفير الذنوب، فأدى ذلك إلى انخراط الآلاف منهم في الحركة الصليبية على طول امتدادها الزماني والمكاني، فأصبحت بلاد الشام –على وجه خاص– وسواحلها مرتعًا خصبًا لأعمالهم الإجرامية، هذا فضلاً عن أعمال اللصوص الشرقيين من السلب والنهب والسطو، فأدى ذلك إلى غياب الأمن والسلم بين الناس على اختلاف دياناتهم وأعراقهم خلال عصر الحروب الصليبية حتى في فترات السلم العسكري بين المسلمين والصليبيين.

بعد هذا العرض لفئات اللصوص والقراصنة في عصر الحروب الصليبية، من الغربيين والشرقيين، يجب التأكيد على أن جميع مَنْ ذُكر اسمهم من الجنسيات والطوائف والعرقيات والأديان، لم يكن جميعهم لصوصًا أو قراصنة، فليس كل الفرنجة من الملوك والأمراء والفرسان ورجال الدين والعامة، أو كل المسلمين والتركمان والأكراد والبدو وغيرهم، كانوا لصوصًا أو قراصنة، ولكن هناك بعض من هؤلاء قد امتهن اللصوصية والقرصنة.

3.المصادر والمراجع

1 قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. المجلس الوطني للثقافة . الكويت 1990م. ص 28.

2 أوربان الثاني Urban II: تولى البابوية من 12 مارس 1088م حتى 29 يوليو 1099م. كان راهبًا في دير كلوني وفي سنة 1080/79م تم تعيينه من قبل البابا جريجوري السابع أسقفًا لأوسيتا Osita، وتوفى أوربان في يوليو 1099م قبل أن يعلم بأن الجيوش الغربية استولت على أورشليم.

New Catholic Encyclopedia the catholic university of American press, Washington, U.S.A. vol, 14. pp. 335 -336.

3 كليرمونت Clermont: معناها بالفرنسية الجبل المضيء، وعندما اندلعت شرارة الاضطهاد الصليبي ضد اليهود، أطلقوا عليها اسمًا عبريًا معاكسًا هو "هارهاوفل" أي الجبل المظلم، تعبيرًا عن كراهيتهم لهذا المكان الذي شهد الدعوة إلى الحرب الصليبية. قاسم عبده قاسم: "اضطهاد الصليبيين ليهود أوروبا". مجلة ابداع، تصدر عن وزارة الثقافة المصرية، عدد 12 سنة 1997. ص53.

4 روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. ترجمة/ سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق 2000، ج39/ ص13.

5 ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر. ترجمة / بشير السباعي، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة، الطبعة الأولى 2003م. ص60.

6 أحمد عبد الله أحمد: الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام في القرن 6-7هـ / 12-13م. دار الآفاق العربية، القاهرة 2016م. ص29، 62.

7 بطرس الناسك Peter the hermit: واعظ الحملة الصليبية الأولى، ولد في إميان بفرنسا سنة 1050م /442هـ، وتوفى في 8 يوليو 1115م، كان قصيرا داكنا، ولم يكن حاضرا عندما أعلن البابا أوربان الثاني عن الحملة الصليبية الأولى، ولكنه بعد ذلك بوقت قصير كان يدعو إلى الحملة الصليبية في جمهور المتحمسين في شمال فرنسا.

New Catholic encyclopedia vol.11. p207.

8 رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة د/ السيد الباز العريني . دار الثقافة . بيروت 1997م. ج1/ ص190.

9 August Krey: the first crusade: the accounts of eyewitnesses and participants Princeton 1921. pp 48- 52.

10 أنّا كومنينا: ألكسياد. ترجمة/ حسن حبشي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى 2004م. ص392.

11 قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية. دار عين . القاهرة 1999م. ص131.

12 رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. ج1/ ص211.

13 يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ترجمة/ عبد الحافظ البنا، دار عين، القاهرة، الطبعة الأولى 2001م، ص562.

14 Dana.c. Munro: The children's crusade. The American history review, vol.19, no3 apr 1914. P.520.

15 توماش ماستناك: السلام الصليبي. ترجمة/ بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى 2003م، ص242-243.

16 يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين. ص579.

17 جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولي. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، لم تذكر سنة الطبع. ص133-134.

18 تاريخ بيت المقدس: ترجمة/ سعيد البيشاوي، دار

الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى 1998م. ص134.

19 أحمد عبد الله أحمد: الجرائم والعقوبات. ص199.

20 جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1984م. ص322.

21 محمد فوزي رحيل: نهاية الصليبيين. دار عين للدراسات، القاهرة، الطبعة الأولى 2009م. ص212.

22 وصف الأرض المقدسة: ترجمة/ سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى 1995م. ص171.

23 قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية. ص71.

24 زابوروف: الصليبيون في الشرق. ترجمة/ إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو 1986م. ص141.

25 بلدوين الأول: شارك في الحملة الصليبية الأولى، ثم تولى كونتية الرها، وهو الملك الأول لمملكة بيت المقدس الصليبية 1100-1118م. محمد مؤنس عوض: معجم أعلام عصر الحروب الصليبية. مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى 2015م. ص362.

26 ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908م. ص212.

27 بلانتغنت: تواريخ أسرة بلانتغنت. ترجمة / سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق1998م. ج30 ص376.

28 ريتشارد قلب الأسد: هو ملك إنجلترا خلال الأعوام من 1189إلى 1199م، وهو أحد قادة ثلاثة للحملة الصليبية الثالثة، حاز شهرة كبيرة كقائد عسكري، بعد مشاركته في الحملة الصليبية الثالثة، وعند عودته إلى بلاده وقع في الأسر. محمد مؤنس عوض: معجم أعلام عصر الحروب الصليبية. ص414-415.

29 رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. ج3 ق 1 ص81.

30 Gina Burke: the justifications for relic thefts.pp.2-13.

31 قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية. ص 134.

32 رينو دي شاتيون: هو أمير أنطاكيا خلال المرحلة الواقعة بين عامي 1153م، 1163م، وهو الابن الأصغر لهيرفي الثاني أوف دونزي، عرف عنه الغدر وسفك الدماء، ونهب القوافل، وقام صلاح الدين الأيوبي بالفتك به في حطين عام 1187م. محمد مؤنس عوض: معجم أعلام عصر الحروب الصليبية. ص416-417.

33 سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة التاسعة 2010م. ج2 ص79.

34 ابن العبري: تاريخ مختصر الدول. دار الرائد اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية 1994م. ص 119.

35 الرهاوي المجهول: روايات المؤرخ الرهاوي المجهول عن الحملتين الأولى والثانية. ترجمة/ سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق 1995. ج5/ ص24-25.

36 كانت قلعة أفامية الواقعة في حوض نهر العاصي، تابعة للأمير العربي سيف الدولة خلف ابن ملاعب الكلابي، والذي كان في عداء دائم مع جيرانه من أمراء المسلمين وبخاصة بني منقذ في شيزر. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية. ج1 ص392.

37 ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار صادر، بيروت، الطبعة السادسة 1995م. ج9/ ص93.

38 روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج39/ص161.

39 فلهاردوان: فتح القسطنطينية. ترجمة/ حسن حبشي، المجلس العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية،

الطبعة الأولي 1403هـ. ص130.

40 روبـرت دي كـلاري: سـقوط القسـطنطينية. ترجمـة/ سـهيل زكـار، الموسـوعة الشـامية في تاريـخ الحـروب الصـليبية، دار الفكـر، دمشـق 1995م. ج10/ ص275.

41 رحلات فيلكس فابري وجولاته: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دار الفكر، دمشق 2000م. ج38/ ص1142.

42 باتسيك ماخوفسكي: تاريخ القرصنة في العالم. ترجمة/ أنـور محمـد إبـراهيم، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب 2008م. ص8 -9.

43 ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي. ترجمة/ أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1991م. ج2/ ص101.

44 Gina Burke: the justifications for relic thefts. Pp. 28-48.

45 جوناثان ريلي سميث: الحملة الصليبية الأولى. ترجمة د/ محمد فتحي الشاعر . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999م. ص224.

46 Gina Burke: the justifications for relic thefts.p.27.

47 فـيلكس فـابري: رحـلات فـيلكس فـابري. الموسـوعة الشـامية في تاريـخ الحـروب الصـليبية. ج38/ ص1174.

48 البشناق: أو البجناك، قبائل بدوية من أصل تركي، عرفهم البيزنطيون قبل القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، وكانوا كثيرو الهجمات على الدولة البيزنطية في البلقان بالتحالف مع قبائل الأوز Uzes، خاصةً في عصر الحروب الصليبية. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص 86-87.

49 الحرب الصليبية الثالثة: ج1/ ص66.

50 رنسـيمان: تاريـخ الحـروب الصـليبية. ج3/ ق1/ ص35.

51 روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية. ج39/ ص734.

52 بغراس: مدينة في جبل اللكام على يمين القاصد إلى أنطاكيا من حلب، كانت بيد الإفرنج وفتحها صلاح الـدين الأيـوبي في سـنة 585هـ. الحمـوي: معجـم البلدان. دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979م. ج1/ ص467.

53 ابن العبري: تاريخ الزمان. ترجمة/ إسحق أرملة، دار المشرق، بيروت 1991م. ص175.

54 المصدر السابق: ص 331.

55 تاريخ بيت المقدس: ص100.

56 ف. هايـد: تاريـخ التجـارة في الشـرق الأدنى. ج2/ ص100.

57 المرجع السابق: جـ1 ص241.

58 روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج39/ ص1011.

59 رحالات فيلكس فابري وجولاته: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج38/ ص244.

60 المصدر السابق: جـ38 ص265.

61 محمـود سـعيد عمـران: حضـارة أوروبا في العصـور الوسطي. دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية 1998م. ص82.

62 أعمال يوحنا ومانويل كومينوس: ترجمة/ سهيل زكار، الموسـوعة الشـامية في تاريـخ الحـروب الصـليبية، دار الفكر، دمشق 1997م. ج28/ ص203.

63 التـاريخ الكبـير: الموسـوعة الشـامية في تاريـخ الحـروب الصليبية. ج40/ ص1308.

64 قونية: من أعظم مدن الإسلام ببلاد الروم – في تركيا حاليا – الحموي: معجم البلدان. جـ4 ص415.

65 قلج أرسلان: هو الملك قلج أرسلان بن سليمان بن

قُتلمش السلجوقي، صاحب بلاد الروم انحدر به الفرس إلى ماء عميق في نهر الخابور فغرق، وظهر بعد أيام فدفن في الشمسانية وهي من قرى الخابور سنة 500هـ / 1107م. ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج10/ ص426. 430.

66 الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1987. ج41/ ص48-49.

67 هو بُلك بن بهرام بن أرتق صاحب مدينة حلب، قُتل سنة 518هـ/ 1124م. ابن الأثير: الكامل في التاريخ. جـ10 ص619.

68 كركر: أو جرجر عبارة عن حصن كبير مرتفع بالقرب من مدينة ملطية بينها وبين مدينة آمد. الحموي: معجم البلدان. جـ4 ص452.

69 المؤرخ الرهاوي المجهول: الموسوعة الشامية. جـ5 ص44.

70 جوناثان سميث: تاريخ الحروب الصليبية. جـ2 ص76.

71سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية. جـ1 ص296.

72 الاعتبار: تحقيق / فيليب حتّي. مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية 1930م. ص29.

73 ابن العبري: تاريخ الزمان. ص138.

74 روايات ميخائيل السوري الكبير: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. ج5/ ص298.

75 تاريخ بيت المقدس: ص109.

76 ابن كثير: البداية والنهاية. ج12/ ص417.

77 الاعتبار: ص 138.

78 مجهول: الحرب الصليبية الثالثة. ج2/ ص140.